

الشعور *

يعنى الشعور فى علم النفس معرفة النفس لذاتها ، ويكاد أن يكون شرطاً جوهرياً فى كل حالة نفسية ؛ وهو - لأنه ملازم لأغلب الظاهرات ، ولأنه مألوف لدى كل إنسان - لم ينتبه إليه الأوائل لأنه ككل أمر بديهي يستدعى نضوجاً كبيراً حتى يلتفت إلى دراسته .

والفلاسفة المعروفون بالطبيين لم يوجهوا أبحاثهم ناحية الفكر ، وساروا فى سبيل دراسة الطبيعة الخارجية غير شاكّين فى مقدرة العقل ، ولا مطمئنين إليه اطمئنان العالم المحقق ، ثم أخذوا ينتبهون إلى النفس بدليل أنهم ميزوا بين الروح والمادة ، وتكلموا عن عقل شامل لهذا الكون ؛ وهذا التصور للوجود ينبئ عن يقظة إلى الشعور بالنفس وملكاتهما . وتستبين هذه اليقظة بصورة أوضح عند السوفسطائيين ، لأنهم آمنوا بوجود العقل الإنسانى وبحثوه من نواحي كثيرة ، بل جعلوه أساساً للمعرفة ، فقالوا بنسبية العلم وبأنه يتوقف على العالم .

وتوّج سقراط هذا التطور نحو معرفة الشعور فقال : « اعرف نفسك بنفسك » ، وإن كان يريد من تلك المعرفة أن يهتدى إلى قواعد المنطق والأخلاق .

* المجلة الجديدة ، يونيو ١٩٣٥ م .

وقد انتبه أفلاطون إلى ظاهرة الشعور ، ولكنه كان انتباهًا عارضًا في أثناء دراسته للإحساسات المتناقضة ، فهو لم يطلق عليه اسمًا خاصًا ، ولم يُوقِفْ عليه محاورَةً من محاوراته الفلسفية ، ولكنه اقترب كثيرًا من المعنى الحديث للشعور عندما مَيَّزَ بين نوعين من التأثيرات : تأثيرات تَقْنَى عند الأعضاء ، وأخرى تصل إلى النفس ؛ فالمعقول أن وجه التفرقة يقوم على أن الأولى لا نشعر بها وأن الأخرى نشعر بها .

وكذلك أرسطوطاليس لم يُسمِّه ، ولم يُفرِّغ له موضوعًا خاصًا ، ولكنه عني بوصفه في أثناء دراسته للعقل والحواس ؛ وما يُستخلص من رأيه عنه أن الشعور ليس ملكةً خاصةً مستقلةً عن الظاهرات ، بل هو غير منفصل عنها ؛ فالعين عندما تبصر تحس بأنها تبصر ، والعقل عندما يتصل بموضوع يشعر بأنه يفكر ، وهكذا .

والرواقيون هم الذين أطلقوا على الشعور اسمه المصطلح عليه في الفلسفة والسيكولوجية ، وقد عَرَفُوهُ بأنه حاسة تُعرَف بها النفس ذاتها ؛ ولما كانت جميع الحقائق عندهم مادية فقد تصوروه كاللمس ، إلا أن موضوعه باطنى ، وأضافوا إليه وظيفة خطيرة في المعرفة ، ذلك أن العلم هو عملية نفسية لهضم الأشياء التى تتصل بالعقل ، ونحن لا نستطيع أن نبلغ اليقين فيما نعلم من العلم إلا إذا وجهنا شعورنا نحو هذه العملية وتأكدنا من سلامتها ، فيقين الشعور أساسٌ لكل يقين عمليّ .

وتكاد أن تكون قيمة الشعور ثانوية في صوفية الأفلاطونية الحديثة ،
وهي تقرر أن النفس تعرف ذاتها ، وتفسر ذلك بأن النفس البشرية
متصلة بالنفس الكونية والعقل الكونى لأنها في الأصل هبطت منهما ،
والعقل يعرف نفسه ، ومن هنا اكتسبت النفس البشرية منه هذه الصفة ؛
والشعور الذى يمكن النفس من الإحساس بذاتها لا يسمو بها إلى معرفة
الله ، مع أن الصلة بينهما غير منقطعة . . فلماذا ؟ ذلك أن النفس مكبله
بأغلال الجسم ، وأن الخيال يبعث بالشعور ، فلا سبيل إلى الله إلا
بالتخلص من أوهام الشعور والحواس والجسم وممارسة الفضائل ،
فمعرفة الله فناء فيه إذ ينعدم فيها الشعور .

وهذا تقديرٌ صوفىٌ ولا شك ، لأن الصوفى لا يهنا خاطره حتى يفنى
في الله وينسى نفسه من ضمن ما ينسى من الإحساسات والشهوات ،
أما عند الفلاسفة فالشعور له قيمة أخرى ، لأنه الإحساس المباشر
بالعالم النفسى ، وقد كان دعامة اليقين التى آوى إليها ديكرت بعد حيرة
طويلة في غمرات الشك ، لأنه بدأ فلسفته بالشك في كل شىء داخل
النفس أو خارجها ، ولكن مغالاته في الشك أرغمته على اليقين في
حقيقة أولى ، وهى أنه يشك ، فلا سبيل إلى الشك في أنه يشك ،
ومعنى الشك أنه يفكر فهو إذن يفكر ، ولما كان لا بد للفكر من مفكر،
فهو إذاً موجود ، فشعوره بالشك أو الفكر هو الذى هداه إلى اليقين
ومكَّنه من إنشاء فلسفته ؛ ولم يكن يرى في الشعور مَلَكَةً خاصةً تختص

بعمل خاص ، وإنما هو يلزم جميع العمليات النفسية ؛ وهذا ما يُفهم
بدهاءة من أن هنالك شعورًا بالفكر ، لأن الفكر عند ديكارت هو ماهية
النفس ؛ فالإرادة والحس والعواطف من الفكر ، والذي يشعر بالفكر
يشعر بجميع هؤلاء .

ومما يجب ذكره هنا أن ملبرانش - تلميذ ديكارت - لم يقدر الشعور
تقدير أستاذه ، لأنه كان يراه أقرب إلى العاطفة منه إلى المعرفة ، فهو
يجعلنا نحس بالنفس ولا نعرفها معرفة واضحة ؛ وهو لا ينكر أن الشعور
يقينى ، ولكنه غامض مع ذلك !

ولكن استرد الشعور مقامه فى الفلسفة على يد ليبنتز ، لأنه كان فى
نهاية الأمر أساس فلسفته ، فإنه لما اقتنع بأن حقيقة الوجود تتلخص فى
حقيقة الجواهر أو الذرات ، ووجد أن هذه الجواهر قُوى ، وأن النفس
أيضاً قوة ؛ رجع إلى النفس يكشف فيها عن حقائق الذرات التى يتركب
منها الوجود ؛ ومن هنا جاءت أهمية الشعور عنده ؛ ولم تكن مهمته
مقصورة على معرفة ظاهرات النفس ، ولكنه يتعداها إلى معرفة الماهيات
الكامنة فى الظاهرات .

وقد درس ليبنتز حالة اللاشعور ، فقال إنه يوجد عدد لا متناه من
الإحساسات التى لا نشعر بها ، إما لدقتها وتكاثرها بحيث يتعذر
التمييز بينها ، وإما لاتحادها فلا ندركها فُرَادى ؛ وهذا يفسر لنا عدم

الشعور الذى تحدّثه العادة والألفة ، كما أن إليه يرجع السر فى الأذواق المختلفة والحالات النفسية الحزينة والسارة التى تَعْتَوِرُ الإنسانَ دون أن يستطيع لها تعليلًا .

وبقى دور الشعور خطيرًا عند لوك ، لأنه كان يعتقد أن التجربة أصلُ كل معرفة ، وأن منها الإحساس ، وهو الذى يحمل إلينا آثار العالم الخارجى ؛ ومنها التأمل الباطنى أو الشعور ، وهو يحمل إلينا آثار العالم الداخلى ؛ فجميع أفكارنا نتاج للإحساس والشعور ، ولكن يوجد من الأفكار ما هو مركب معقد كإنكار العلة والمدة ، وهذه لا يكفى الشعور فى تكوينها ، بل إن عمل الشعور هنا والإحساس أن يقدم الألفاظ البسيطة التى تُركَّب منها النفس ما هو أعقد منها . فإذا . . الشعور لا يعرف الماهيات ، وهذا ما ذهب إليه فيلسوف آخر من فلاسفة المدرسة التجريبية الإنجليزية وهو دافيد هيوم ، فعنده أن الشعور لا يعرف إلا ظاهرات النفس ، وأما ما نسميه بالحقائق النفسية - كالعلة والجوهر - فهى أوهام يخلقها تداعى الأفكار والمعانى .

رأينا حتى الآن أن من الفلاسفة فريقًا يرون فى الشعور حاسةً لمعرفة حقيقة النفس وماهيتها ، وفريقًا يرون قدرته مقصورة على معرفة ظاهرات النفس ، وأنه لا يوجد فى داخليتنا إلا ظاهرات مطردة ، وجميع الماهيات أوهام ؛ وفلسفة كانط النقدية تحاول أن توفق بين هاتين الفلسفتين المتنافرتين ، فتقول إن الشعور لا يعرف النفس فى ذاتها ، بل يعرف

ظاهراتٍ فقط ، فالنفس حقيقة موجودة ولكننا لا نعرفها إلا كما تظهر لنا؛ فهو لا ينكر وجود الماهيات ، ولكنه لا يزعم أنه يستطيع معرفتها كما هي ؛ ولا ينكر الظاهرات ، ولكنه لا يقول بأنها كل ما يوجد .

ولكن كيف تبدو لنا الحقائق على غير ما هي عليه ؟ ذلك لأن الإحساسات التى تحمل لنا آثار العالم تترابط وتتحول إلى معرفة خلال قوانين العقل ، فالعقل يشترك فى تكييف الحقائق ؛ وإذا فنحن لا ندركها فى النهاية كما هي ، وإنما كما تبدو قوانين العقل ؛ فالشعور يتأثر بالعقل لأنه لا يدرك حقائق النفس إلا بعد أن يصورها العقل بقوانينه .

على أنه يوجد نوعان من الشعور : تجريبي ، وهو يصاحب الظاهرات النفسية حتى قبل أن يؤثر فيها العقل ؛ ونظري ، ويصاحب العقل فى أثناء توحيده بين ظاهرات النفس والعالم الخارجى .

وقد التفت كانط كذلك إلى اللاشعور واعتقد أنه يشغل أغلب الحياة النفسية ، فالتلصكب مثلاً يكشف لنا عن آلاف من الأجسام لا نحسها بالعين المجردة .

وقد وُجِدَ من أتباع المدرسة الأيقوسية من تصور الشعور تصوراً جديداً ، فنحن إلى الآن لم نصادف من الفلاسفة من اعتبر الشعور مَلَكَّة متميزة تشاهد حياتنا الداخلية من غير أن تشترك فيها ، أما ريد الأيقوسى فيقول إننا نعرف أفكارنا وجميع عمليات عقلنا بمَلَكَّة نسميها

الشعور . والشعور يعرف الظاهرات لا النفس في ماهيتها ، وقد رد على قول هيوم إنه لا يوجد أغمض من أفكار القوة والعلة إلخ ، قائلاً إلى تفهّم ضرورة كنتيجة لشعورنا بأنفسنا ، فإننا نشعر بالعمليات النفسية التى توحى بأفكار القوة وغيرها .

ولكن يوجد من الفلاسفة الأيقوسيين من يخالف ريد فى تكيفه هذا للشعور ، وهو هملتن ؛ فعنده أن الشعور ليس ملكة متميزة ، وهو لا يتميز عن الحالات التى يشعر بها ، وقد عرّفه بأنه حالة شاملة تنطبق على جميع العمليات النفسية التى تزيد على درجة من القوة ؛ ومن ملاحظات هملتن أن الشعور لا يمكن أن يقتصر ميدانه على الحالات النفسية الخالصة ، ذلك لأن الشعور يمتد امتداد ملكات النفس . فعندما تجسّس العالم الخارجى بملكات ، أو تعرف حقيقة من حقائقه نشعر بها أيضاً ، فشعورنا يشع على العالم الخارجى كذلك .

وقد سلم هملتن بوجود اللاشعور ، واستدل عليه بأدلة ، منها : أن أغنى ما فى عقلنا - كالعلوم واللغات - يبقى عادةً بعيداً عن محيط الشعور، وأنه فى بعض الحالات المرضية يهذى المريض بما يظن أنه لا علم له به . وكذلك ففى ترابط المعانى توجد وسائط موصّلة غير مشعور بها ، يستدعى وضوحها تمعناً طويلاً .

فلما كان عهد المدرسة التجريبية الحديثة التى يمثلها ستيفارت ميل

وبين وسبنسر ، والتي هى فى الواقع امتداد للمدرسة التجريبية القديمة التى أنشأها لوك وهيوم . . أقول : لما كان عهد هذه المدرسة ، نُظِرَ إلى الشعور نظرةً جديدةً فيها أثر كبير من نظرية داروين العلمية فى التطور ، فانتبهوا إلى أن الشعور الحديث لا يمكن أن يكون صورةً طبق الأصل من الشعور القديم ؛ وتنبهوا كذلك إلى أوهام الشعور ، فهو مثلاً يعرفنا بظواهرٍ نفسية ، ويجعلنا نعتقد أنها بسيطة ، وفى الحق هى معقدة ، ويمكن أن نحللها إلى عناصر كثيرة مختلفة تكونت ببطء على مرّ السنين ، وخضعت لقوانين التطور .

والشعور عند هذه المدرسة لا يدرك إلا الظاهرات ، وهذا محقق لغرض السيكلوجية العلمية التى لا ترغب فى أكثر من أن تربط الظاهرات بقوانين وتعرف أحوال تداعبها .

وقد أنكر ميل وجود لا شعور سيكلوجى . وقال عن المؤثرات التى لا نحس بها إنها فسيولوجية ، بمعنى أنها مؤثرات لم تصل قوتها إلى المراكز العصبية فلا يلتقطها الإحساس ؛ فالغائب عن الوعى هنا ليس أمراً نفسياً ، ولكنه عصبى .

وبين الشعور عند سبنسر يقتضى الحركة ويستلزم التغير ؛ فوجود حالة نفسية لا يُحدث الشعور بها ، ولكن يُوجدُ الشعور إذا وُجدَ تنقلٌ من حالة إلى أخرى .

والذى يهم قوله هنا ، أن الأفكار توجهت بشدة نحو ظاهرة
اللاشعور ، ووصفت ظاهراته العجيبة وصفاً مسهباً حتى تَغَالَى البعض
- مثل مودسلى - وقالوا إن الشعور نفسه أمر ثانوى .

فإذا عرجنا إلى العصر الحديث ، وجدنا ثلاث نظريات عن الشعور
لثلاثة من كبار مفكريه ، وهم : وليم جيمس وبرجسون وهملن .

وطريقة جيمس التفكيرية أن يسير من المركَّب إلى البسيط ، فهو
يحاول أن يعرف الحالات النفسية على أساس معرفته بالنفس ، لا أن
يعرف النفس من مقارنة الحالات النفسية وفحصها عقلياً .

والشعور هو أول ظاهرات السيكلوجية ، وتتصل به كل حالة
نفسية ؛ ولكن الشعور لا يوجد خارج الحالات المختلفة ولا توجد
الحالات منفصلة عنه ؛ الشعور عمود الحالات النفسية الفقرى ، وهو
الذى يُوحَّد بينها ويكون منها كلاً لا يتجزأ ؛ وهو مع ذلك فردى ، أى
مستقل فى فردٍ عنه فى بقية الأفراد .

والحالات النفسية تتجدد وتتغير دائماً ، بحيث إذا عاودتنا حالة
مرتين ، فلا بد من تغير فى المرة الثانية يجعل ذاتها مختلفة عما كانت عليه فى
أول مرة . والشعور مستمر كالتيار الجارى ؛ وليس مجرى الشعور متشابه
السطح ، ففيه حالة يتوقف الفكر فيها عن الحركة ، وأخرى يسبح فيها
الفكر .

وليس ثمة شك في أن الحالة الأولى من السهل ملاحظتها ووصفها ،
ولهذا وَجَّهَ إليها جُلَّ عنايته ، ولكن ينبغي ألا نهمل الحالة الثانية . .
حالة الحركة .

والشعور يدرك الحالتين معاً ، أى أنه يدرك ظاهرات النفس وعلاقاتها
التي تربطها بعضها إلى بعض ؛ ومعنى هذا أن الشعور تركيبى لا ينسى
المجموع أثناء تحليله للأجزاء ، وأنه يحتفظ باستمراره واتصاله رغم تقطعه
الظاهر .

والشعور لا يقف موقف الحياد من الحالات النفسية المختلفة ، ولكنه
يميل إلى البعض ويهمل البعض الآخر ؛ والحالات التي يتجه إليها
الشعور يقال إنها في البؤرة ، بينما التي ينصرف عنها تكون في الحاشية ،
وجميع الحالات تدور بين البؤرة والحاشية تبعاً للظروف النفسية ؛ وهذا ما
يُحدث التيار ، ويفسّر غلبة بعض الحالات على غيرها بالاهتمام العملى
في حياة الفرد .

وقد اتبع برجسون نفس المنهج ، ولاحظ أول ما لاحظ أن الشعور
ليس مقصوراً على الحاضر لأنه حِفْظٌ للماضى فى الحاضر وتقدير
للمستقبل ، والذي ندركه حقاً هو قَدْرٌ من الزمن النفسى يضم ماضينا
المباشر ومستقبلنا القريب ، وبمعنى آخر : الشعور قنطرة بين الماضى
والمستقبل .

ولكن . . ما فائدة هذه القنطرة ؟

تجيب فلسفة برجسون على هذا السؤال بالآتى : يظهر الشعور بظهور الحياة ويلازمها ملازمة الظل ، لأنه أساس العمل ، ويده تدبير الأمور والبت فيها ، ويقدر على ذلك قدرة تامة لحفظه للماضى وتقديره للمستقبل ؛ ولهذا كله فهو يقوى وينتبه حين يقبل الحى على حالة تتطلب التدبير والاختيار بين حلول كثيرة ، ويضعف حيث يستغنى عن الاختيار ويقرب الفعل من العادة أو الآلية ؛ ولما كان الاختيار مرادفًا للحرية ، فعمل الشعور يقوم على الحرية ، وبذلك يحكم الشعور الحرية فى المادة . وعليه فصفات وظيفة الشعور هى ذاكرة وتقدير للمستقبل واختيار وحرية .

ولكن . . ما طبيعة الشعور ؟

عن هذا السؤال يجيب برجسون إجابةً صوفيةً سامية ، وإن لم تُرضِ نزعات العلم التجريبية ، فهو يقول مثلاً إن الشعور لا يمكن أن يتحلل إلى حالات متميزة ، منفصلة ، مستقلة ؛ الشعور وحدة متصلة كالنغمة الموسيقية (تَصَوَّرْ نغمةً موسيقية . . تشعر بنفسها . . وتخلق نفسها) ، هذا هو الشعور كما يجب أن نفهم .

ونحن نعبر عن طبيعة الشعور باللغة وبالتحليل العقلى ، وكل هذا يفسد طبيعته ويعرفنا بشىء سواها : الشعور وحدة من حيث الصورة ،

أما من حيث الجوهر فهو صفة خالصة ، أى أنه ليس كماً . وفى هذا رد على الذين يزعمون أنهم يقيسون الظاهرات الشعورية كأنها ظاهرات مادية ، وهو يُرجع هذا التصور إلى ما تظنه الأذهان العامة من أن العاطفة الأقوى أكبر كميةً من غيرها .

وهذا نقد لطريقة التأمل الباطنى ، ومحاولة لإقامة السيكلوجية على أسس جديدة بعد تطهير العقل من الأوهام العامة وإعارات السيكلوجية الطبيعية .

أما همملن فلا يميز الشعور عن الفكر ؛ ولما كان الفكر عنده يشمل حقيقة الوجود ، فلا شىء يخرج عن ميدان الشعور ، سواء كان من ذات الإنسان أم من الوجود الخارجى . ولم يكن يرى فى النفس جزءين ، واحد يشعر والآخر يكون موضوعاً له ، فهما عنده شىء واحد يشعر بذاته . ولكن إذا قلنا إن جميع الظاهرات هى ظاهرات شعورية ، فما السبيل إلى تمييز الظاهرات النفسية عن غيرها من الظاهرات ؟

إننا إذا قلنا إنها غير ممتدة أو لا تقع تحت حس فإننا نعرفها تعريفاً سلبياً ، والحق أن أهم ما يميزها أنها ذاتية ، أى أننا نحس إحساساً قوياً أننا العامل الفعال فى وجودها وتكييفها .

وهو - كبرجسون - يرى للشعور وظيفة هى الاختيار ، وإذا فهو مثله أيضاً يرى أن الحرية شرط أساسى فى وجوده .

وقد صار الآن للاشعور نظرياتٌ أيضًا كما للشعور ، وتوجد طريقتان لتصوره :

واحدة تعتبره حالةً من الشعور ، والأخرى تراه شعورًا ثانيًا مستقلًا أو نفسًا أخرى قائمة بذاتها . وهو في الحالة الأولى ظاهرةً من الظواهر النفسية ، وأما في الحالة الثانية فهو كائن . هو حى آخر فى الإنسان . ونستطيع أن نضرب مثالاً على الحالة الأولى بالكتابة الآلية التى يكب فيها الإنسان على كتابة ما يُملئ عليه مثلاً وهو غير دارٍ بما يفعل ، والحالة الأخرى مثلها « الوسيط » الذى يأتى بالعجب أثناء التنويم المغناطيسى ، أو ما يسمونه بتحضير الأرواح . والنظريات التى تقول بأن الاشعور شخصية خفية هى التى تقرر حقيقة تكاثر الشخصيات . ومن أصحاب هذا رأى فرويد ، فىرى فى الغريزة الجنسية شخصية تعيش فى باطن الإنسان ، وهى دائمة الصراع مع شخصية أخرى هى الشخصية الاجتماعية ، فإذا غلبت على أمرها فى الحياة الواقعة انطلقت حرة فى الأحلام .

والنظريات القائلة بأن الاشعور ظاهرةٌ تختلف ، فمنها ما يعتقد بأن جميع الظواهر النفسية عُرْضةٌ لأن تنغمر تحت سطح الاشعور ، يستوى فى ذلك منها السامى الذى يتصل بالفكر ، والمنحط الذى يسفل للحس والشهوات ؛ فتوجد أحياناً آلية فى التفكير كما توجد آلية فى الأفعال ، ويوجد لاشعور فى الملكات العليا كالاختراع والإلهام والعبقرية ، بل إن التركيب - وهو العمل العقلى الجوهري - لاشعورى .

ومنها ما تقصر ميدان اللاشعور على الإحساس وتنفيه عن الفكر ؛
فالأستاذ ريبو يقول إنه إذا كان يوجد اللاشعور ، ففي حالة النزوع
السابقة للـشعور .

ونختـم الموضوع بأن نلخص نظريات الشعور فيما يأتى :

١ - نظرية بعض الأيقوسيين التى ترى فى الشعور مَلَكَـة متميزة عن
بقية الظاهرات النفسية ؛ وليس لها قيمة الآن .

٢ - المذهب التجريبي ؛ وكان يحاول أن يجعل من السيكلوجية علماً
لدراسة الظاهرات النفسية فقط ، وعنده أن الشعور صفة تلحق
بالظاهرات الفسيولوجية إذا بلغت حدّاً من القوة .

٣ - نظرية مذهب كانط النقدى ؛ ويرى أن الشعور لا يكشف لنا
عن ماهية نفسنا ، ولكنه يعرضها كما تبدو لنا .

٤ - والنظرية الرُّوحية ؛ وهى تؤمن بأن الشعور ينفذ إلى الماهية والحق
والمطلق ، وجعلت من السيكلوجية ميتافيزيقا .